من بلاغة القرآن الكريم

تنزيل الحكيم منازله

بقلم الأستاذ الدكتور

محمد إبراهيم البنا

عميد كلية الدراسات الإسلامية

والعربية بنات بسوهاج

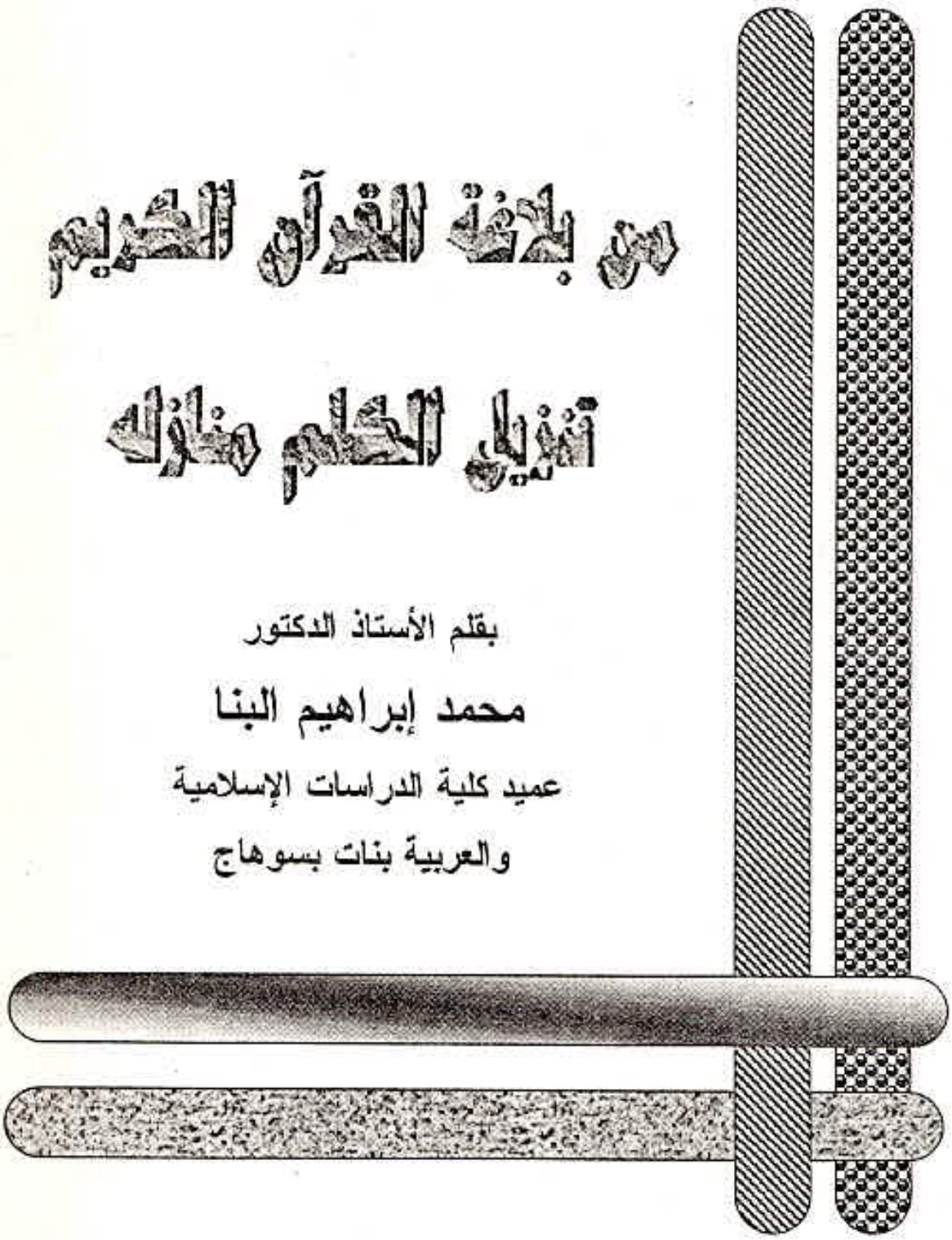

بسم الله الرحمن الرحيم

من بلاغة القرآن الكريم : تنزيل الكلم منازله

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد المبعوث رحمة للعلمين ، بكتاب عربى مبين ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

وبعد ،، فإن وجوه الإعجاز فى القرآن متعددة ، يجد فيها الباحث فى شتى مناحى المعرفة ما يأخذ النظر ، ولا يزال المتأمل فيه يكتشف من وجوه التفرد فى المقاصد والمعاني والأساليب والمفردات ما يجعله نسيج وحده ، ويحيل أن يكون فى طاقة البشر ، وبحسبك أن تنظر مواد القرآن الكريم فسوف ترى أنه اجتمع فيه منها ما يمتنع أن يتهيأ لبشر ، فأنت تستطيع دون عناء أن تحصى مفردات أديب ما ، شاعراً كان أم كاتباً ، أما مواد القرآن الكريم وأدواته فقد تجاوزت الحدود

الإنسانية ، ويمكن أن يقال ذلك فى تنوع أساليب القرآن تنوعا فريدا باختلاف سياقه ومقامه .

ونحن الآن مدعوون جميعا لتجديد موقفنا من كتاب الله العزيز وأعنى بذلك دارسى بيان القرآن الكريم ونظمه، فإن علينا أن نطرق هذا الباب ، وأن نحتفل أيما احتفال بما مهده لنا السابقون من مقالات واجتهادات فى التعرف على نظم القرآن الكريم وأسلوبه ومنهجه فى اختيار مفرداته ، ومراعاة نسق الكلام وترتيبه ، وأن يكون ذلك دأبنا الذى لا ينقطع ، ومنهجنا الذى إذا اجتمعنا نجتمع عليه ، وإذا افترقنا نفترق عليه ، وألا نقنع بما انتهى إلينا من زاد الأوائل فى القرن الرابع ، ثم ما كان من محاولات بعد ذلك لبعض الأعلام فى القرون التى تلته ، وذلك حتى لا نبتعد عن ذوق العربية الذى خاطبه كتاب الله ، فنقف بذلك على ما وقفوا ، ونجدد القرآن فى قلوبنا ، فليس للتبرك وحده يقرأ القرآن ، ولكن أيضا لتدبر معانيه ، والتعرف على مقاصده ومراميه ، وبذلك يكون الدرس القرآنى أوقع فى القلوب ، وأبلغ فى النفوس ، ويكون المضمار الذى تزكو به الدراسة الأدبية والنقدية ، فمن العجيب أن تكون الأصناف الأدبية هى موضع اهتمام النقاد الأول الآن ، ويشغل بها الدارسون أيما اشتغال ، ولا يكون لدارسى القرآن الكريم

وحافظى كتابه المشاركة المطلوبة ، والجهد المكافئ لكتاب الله العزيز .

ولقد كان مما أفاء الله على أن أتيح لى قراءة آثار السهيلى ومصنفاته ، وكان هذا الأستاذ الأندلسى مشغولا فى كتبه كلها بالحديث عن إعجاز القرآن الكريم ، وبلاغة النبوة ، ومنبها على ما تميز به النظم القرآنى ، فى مفرداته ونظمه ، كثير الحديث عن سياقه ومقتضياته ، وأن اللفظة القرآنية ، قد أحكم اختيارها كما أحكم وضعها ، ثم كان يقول دائما: " وهذا ما لا نجده فى كلام الناس " ، يعنى أنهم قد يترخصون فيضعون الألفاظ بعضها موضع بعض ، ويعدونها مترادفات ، على حين أن بينها فى النظم القرآنى فرقانا عظيما ، ومنازل يجب أن تطلب . وكما تحدث عن اختيار الكلمة القرآنية تحدث كذلك عن وضعها الذى وضعت فيه ، فرأينا له كلاما جديدا فى التقديم والتأخير ، فكثيرا ما وازن بين لفظة قدمت فى آية وأخرت فى آية أخرى ، واضعا أيدينا على أثر المقام أو السياق فى استقرار الكلمة من الآية . وقد سبقه إلى ذلك الإمام عبد القاهر الجرجانى حيث تحدث عن اللفظة المتمكنة المقبولة التى حسن فيها الاتفاق بينها وبين ما سبقها أو لحقها فى جملتها ، وعن اللفظة الأخرى القلقة النابية التى لم تلتئم من حيث المعنى مع

صاحبتها . فبنى السهيلى على كلام عبد القاهر ، وشـــارك – كما سبق فى مدارسة النص القرآنى ، وكان بذلك حفياً ، مؤثراً ما قدمه من اجتهادات على ما يحفل به الناس فى دنياهم .

تأثرت جداً بمقالات الســـهيلى ،وبـــدا ذلـــك فـــى تلـــك المحاولات التى أقدم نماذج منها الآن عن النظم القرآنى :

الوالد والأب :

من الكلمات التى يضعـــها الأدباء والشـــعراء موضـــع بعض ، يظنون أنها من المترادف و كلمتا الوالد والأب ، علـــى نحو ما صنع حسان بن ثابت فى قوله :

فإن أبى ووالده وعرضى لعرض محمد منكم وقاء

فلا تحس فى بيت حسّان بشيء من التمايز بين كلمتـــى الأب والوالد ، لكنك إذا راجعت القرآن الكريم وجدت الأمر غـير هذا ، فلكلمة الأب مقامها ، وكذلك كلمة الوالـــد . ولقـــد نبـــه السهيلى على مـــا بينهمـــا من فرق عند تفســـير قوله تعالى : ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساءً فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ، وإن كانت واحدة فلها النصف ، و لأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان لـــه ولـــد ،

فإن لم يكن له ولد وورثـــه أبـــواه فلأمـــه الثلـــث ﴾ ، قـــال السهيلى:" ذكرهما -يعنى الأب والأم - بلفظ الأبوة دون لفـــظ الولادة كما قال : ﴿ وبالوالدين إحســـاناً ﴾ ، لأن هـــذه الآيـــة معرضها ومقصودها غير ذلك ، ولفظ الوالدين أوفـــى وأجلـــب للرحمة ، وأشكل بالوضع الذى يراد به الرفق بهما ، لأن لفـــظ الولادة يشعر بحال المولود ، وبرحمتهما له إذ ذاك ، ألا تـــراه يقول فى آية الوالدين ﴿ وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً ﴾ ، ولفظ الأبوين أوقر ، وإن كان لفظ الآخر -يعنى الوالديـــن - أرق " .

ومأخذ الرقة فى لفظ الوالدين -كما رأينا - أنه يدل على الولادة ، لأنها مدعاة للرحمة ، ولذلك حين وصـــى الله تعـــالى بالوالدين وقعت الوصية بلفظ الولادة وحده دون لفظ الأبويـــن ، يقول تعالى: ﴿ وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبـــدون إلا الله وبالوالدين إحسانا ﴾ وقال :﴿ كتب عليكـــم إذا حضـــر أحدكـــم الموت إن ترك خيـــراً الوصية للوالدين والأقربين بـــالمعروف ﴾ وقال :﴿ قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين ﴾ . وهكـــذا حيث وصّى الله ترى الوصية بلفظ الولادة دون لفظ الأبوة .

ومما استدعاه المقام أيضاً أن يذكر فيه لفظ الوالدين ، قوله تعالى :﴿ ياأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئاً ﴾ فعبر بالوالد والولد أو المولود لما بينهما من التراحم فى الدنيا ، وعلى الرغم من ذلك ترى كلاً منهما لا يغنى أحدهما عن الآخر شيئاً فى الآخرة ، فكان النص على لفظ الولادة أدل على عظم اليوم الآخر مما لو عبر بلفظ البنوة والأبوة .

على أن الله تعالى قال فى آية :﴿ يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ﴾ فعبر هنا بالأبوة والأمومة ، وفى الآية السابقة بالوالد والولادة ، لأن لكل من الآيتين سياقاً ومقاماً ، فسياق قوله تعالى : ﴿ واتقوا يوما لا يجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئاً ﴾ هذا السياق يعنى أنه لا شفاعة فى هذا اليوم ولما كان منشأ الشفاعة الرحمة ، كان لفظ الولادة أنسب بهذه الآية . فأما الآية الأخرى فمقامها مكان القرار ، لأن كل امرئ مشغول بما هو مدفوع إليه ، فلا مجال حينئذ للحديث عن الرحمة ، وناسب التعبير بالأب والأم اللذين لا يؤخذ منهما أكثر من الدلالة على الانتساب والانتماء .

وقارن دعاء إبراهيم عليه السلام فى سورة الشعراء وهو قوله تعالى : ﴿واغفر لأبى إنه كان من الضالين ﴾ بدعائه فى سورة إبراهيم : ﴿ ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ فدعا فى سورة الشعراء لأبيه ، وفى سورة إبراهيم لوالديه ، ومن عرف ذوق كلمة الوالد يجد أنها تكون نابية لو قيل : واغفر لوالدى إنه كان من الضالين ؛ لأن كلمة الوالد بما تعطيه من رحمة القلب والرقة على الوالد لا يناسبها أن تقرن بوصفه بالضلال ، ومن هنا عدل عن الوالد إلى الأب . فأما آية سورة إبراهيم فلم تقر بذلك ، وليس فيها ما يقلق كلمة الوالد ، فاستقرت فى موضعها وحيث المقام مقام طلب الرحمة .

لقد نبهنا النقاد الأوائل إلى أن لكل مقام مقالاً ، وأن السياق أيضا ينبغى أن يكون مرعياً ، ولقد رأيت أن المقام قد يكون واحداً ثم تجد السياق يطلب من الكلم مالا يطلبه سياق آخر . وإن عليك أن تنظر فى آية الأحقاف : ﴿ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها ، وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ، حتى إذا أشدّه بلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن اشكر نعمتك

التى أنعمت على وعلى والـــدى وأن أعمـــل صالحـــا ترضـــاه وأصلح لى فى ذريتـــى ﴾.

فتجد أن لفظ الوالدين يستدعيه الحديـــث عـــن الحمـــل والرضاعة والفصال ، ثـــم إن مـــا فـــى الولـــد مـــن صـــلاح ونعمة قد سرى إليه من والديه ســـريان المـــاء فـــى الفـــروع والأغصان ، والذى ينبه على هذا المعنـــى قولـــه تعـــالى : ﴿ وأصلح لى فى ذريتى ﴾. فـــهو يدعـــو لذريتـــه كمـــا كـــان والداه يدعوان له ، ومن هنا كـــان لفـــظ الوالديـــن يقتضيـــه السياق وذكر النعمة كما اقتضاه مقام الشـــكر ، ولاحـــظ هـــذا فى دعاء ســـليمان عليـــه الســـلام فـــى آيـــة النمـــل : ﴿ رب أوزعنـــى أن أشـــكر نعمتـــك التـــى أنعمـــت علـــى وعلـــى والدى ﴾ . وتأمل معى قوله تعـــالى : (حملتـــه أمـــه) فـــى آيتى لقمان والأحقاف ، فسوف تـــرى أن الســـياق يـــأبى أن يقال : حملتـــه والدتـــه ، وإن كـــان المقـــام مقالـــه الوصيـــة فالحديث هنا عن الحمل والوضع ، فكان ذكـــر الأم هنـــا ممـــا ينفى التكرار لو عُبِّر بلفـــظ الـــولادة ، ومنشـــأ التكـــرار مـــن ذكر الوضع بعدُ ، ثم هل تجد الســـياق يســـمح بـــأن تقـــول : حملتـــه والدتـــه ، والمقصـــود تصـــور الحمـــل وحـــده ،

والوضع وحده ، فكان ذكر الوالدة لو قيل - مع ما فيه من التكرار الذى بيناه - ما يخل بالتصور المقصود .

تلك نماذج من مقامات وسياق لفظ الوالدين فى القرآن الكريم ، فهما يذكران فى مقام الوصية بهما ، وتعظيم أمرهما ، وشكر الله تعالى - على ما أنعم به على الوالدين ، لأن ما فى الوالد من صلاح هو من صلاح والديه . فأما ذكر الأبوين فى القرآن الكريم فسياقه غير السياق المتقدم ، لا يعد مجرد النسبة ، يقول تعالى فى سورة النساء : ﴿ فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث ﴾ ، ﴿ ولأبويه لكل واحد منهما السدس﴾ ، وقال فى سورة الكهف : ﴿ وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين﴾ . وقال فى سورة يوسف : ﴿ ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق ﴾ . وقال فى سورة الأعراف : ﴿يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ﴾ . وهكذا الأب مفرداً كان أو مجموعاً إنما يذكر لبيان النسبة ، نحو قوله تعالى :﴿ قلوا يأيها العزيز إن له أبا شيخاً كبيراً ﴾ ، ﴿ يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء ﴾ ، ﴿قالوا : بل نتبع ما ألفينا علية آباءنا ﴾ . فهل تجد فى

سياقات الآية المتقدمة ما يقتضى ذكر الوالدين ، من الحديث عن الرحمة أو الوصية ؟ فتبارك الله رب العالمين ، وإنه فى كل آية من آيات كتابه من الدلائل ما يستدعى إعادة النظر والتأمل والتدبر ، إنه كتاب الله العزيز الذى أحكمت آياته ﴿ وفصلت من لدن حكيم خبير ﴾ .

ولتتأمل معى نهج القرآن الكريم فى أسلوب ندائه مع لفظ الأب ، فتجده متفردا بأسلوب النداء دون الوالد ، نحو قوله تعالى : ﴿ قالوا يا أبانا ، مالك لا تأمنا على يوسف ﴾ ، ﴿ يا أبانا إنا ذهبنا نستبق ﴾ ، ﴿ يا أبانا منع منا الكيل ﴾ ، ﴿ يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا ﴾ ، ﴿ يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ﴾ . ولم يقع لفظ الوالد هذا الموقع فى النداء ، وذلك راجع إلى أن لفظ الأب أوقر من لفظ الوالد ، وما فيه من الوقار هو الذى ميزه بأن يكون فى النداء لأن من توقير الرجل أن تشعره بأبوته لك ، وانتمائك إليه ، ومن هنا قال العربى :

أكنيه حين أناديه لأكرمه

ولا ألقبه و السوأة اللقب.

هذه منازل كلمتى الوالد والأب فى القرآن الكريم ، فهل تجد بعد ذلك حسنا فى قول حسان :

فإن أبى ووالده وعرضى   لعرض محمد منكم وقاء

وهل تراك تشاركنى القول بأن حسان وأقرانه من الشعراء يأخذون من عناية النقاد فوق ما يستحقونه ، وأن حسان بقوله : (أبى ووالده) قد رصّ الكلم رصًا دون أن يستشعر فروق الدلالة ، فكان ذكر الأب مع الوالد مما ينكره صاحب الذوق والحسن الذى تأدب بأدب القرآن الكريم .

الأم والدة :

وبمناسبة الحديث عن الأب والوالد ، وما ذكرناه من تنزيلهما منازلهما فى كتاب الله العزيز ، نذكر كذلك منازل كلمتى الأم والوالدة ، وهى ليست ببعيدة عن مقام كلمتى الأب والوالد . ولو رجعت إلى معاجم اللغة تراها تقول : الأم هى الوالدة ، والوالدة هى الأم. ومن المعروف أن المعاجم إنما تذكر الدلالة على سبيل التقريب ، ومن هنا ينبغى ألا يظن أن الكلمتين متساويتان دلالة اعتماداً على مقالة المعاجم ، ذلك أن

علماء اللغة كانوا يدركون أن بين مثل هاتين الكلمتين – الأم والوالدة – فروقاً يظهرها الاستعمال ، وقد نبه على ذلك أبو هلال العسكرى فى كتابة الفروق . وتعريف الأم بأنها الوالدة تعريف روعي فيه أنها أصل المولود ، وأنها الجامع للأولاد فى الحضانة ، فأم الشيء أصله الذى تتفرع منه فروعه ، وهذا المعنى هو الذى نجده فى قوله تعالى : ﴿ الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم أن أمهاتهم إلا اللاتى ولدنهم ﴾ ، فالله تعالى يقول : إن المرأة المظاهر منها لا تكون أما للمظاهر ، وإنما أمه تلك التى ولدته ، فمعنى الولادة ملحوظ فى الأم متستتبع من دلالته ، وأما بصريح لفظه فهو يدل على الأصل الذى يرجع إليه . أما كلمة الوالدة فهى تدل بصريح لفظها على الولادة ، وذلك يستتبع من حيث المعنى الدلالة على الأمومة . هذا هو مناط الفرق بين كلمتى الأم والوالدة ، ولذلك كان المناسب للفظ الأم أن يستعمل حيث يراد الدلالة على النسبة ، كما ذكرنا فى كلمة الأب ، وكان المناسب أيضاً أن يستعمل لفظ الوالدة حيث يراد معنى الولادة وما يصاحبها من الرضاعة وما تقتضيه الولادة كذلك من الرحمة والمودة ، وهى فى هذا

المعنى تستعمل فى مقام ذكر الوالـــد وســياقاته ؛ وهــذا مــا نجده فى أسلوب القرآن الكريم ، فلفــظ الأم يــرد فــى مقــام الحديث عن الانتساب ، يقوله تعالى ﴿ يا أخـــت هــارون مــا كــان أبــوك امــرأ ســوء ومــا كـــانت أمــك بغيـــا ﴾ ، ويقـــول جل شأنه ﴿ وجعلنـــا ابــن مريــم وأمــه آيــة ﴾ ، ويقول : ﴿ يوم يفر المرء من أخيـــه، وأمـــه ﴾ ، إلـــى غــير ذلك من الآيات التى تستعمل فيها كلمـــة الأم ، كمــا تســتعمل كلمة الأب ، فى مقام النســـب .

ولقد ذكرنا من قبل سياق لفظ الأم فـــى آيتـــى لقمــان والأحقاف ﴿ حملته أمه ﴾ مـــع أن المقــام مقــام الوصيــة ، لأن من أسباب الوصية أن يتذكـــر المــرء الحمــل والوضــع والفصال ، فكان ذكــر الأم مغنيــاً عــن ذكــر الوالــدة ، لأن حديث الوضع والفصـــال بعــدُ مقصــود لذاتــه ، فاســتقرت كلمة الأم فى قوله : ﴿حملتـــه أمـــه ﴾ ، ولو وضعــت كلمــة الوالدة مكانها ، لقلقــت فــى مكانــها ، لأنــها أم مــا دامــت حاملة ، ولا تكون والدة . وهذا المعنـــى ملحــوظ فــى قولــه تعالى : ﴿ يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً مـــن بعــد خلــق ﴾ وقوله : ﴿ وإذ أنتم أجنة فى بطــون أمــهاتكم ﴾، فــلا يمكــن أن يستقر لفظ الوالدة أو الوالدات فى هـــذا الموطــن .

وتأمل معى قوله تعالى : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾ بعد قوله تعالى : ﴿ ولله غيب السموات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ﴾ تجد الحديث عن تفرد الله سبحانه وتعالى بالتصرف ، وأنه كما أخرجكم من عدم كذلك ينشئكم يوم البعث من العدم ، فحديث الإخراج هو مقام الآية الأول ، كما قال تعالى : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ ، فلما كان المقام مقام الحديث عن الأصل والمنشأ كان المناسب ذكر الأم ، فقال تعالى : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم ﴾ ، فليس التولد هنا هو الذى يستدل به على البعث حتى يكون لفظ الوالدة والوالدات هو المناسب للمقام ، وإنما الإخراج من العدم وذلك أمر يسبق الولادة وما الولادة إلا حدث من أحداث هذا الإخراج، والمقصود هو التفطن فى الإنشاء كله ، لا فى الصورة التى يكون عليها المخلوق ساعة خروجه من بطن أمه لأن الإخراج فيه تنبيه على الخلق والتصوير فى الرحم ويشهد لهذا قوله تعالى فى هذه الآية : ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾ وكل ذلك مما يقتضى ذكر الأم

لا الوالدة ، ثم هل تجد السياق يسيغ أن تقول والله أخرجكم من بطون والداتكم إذ كيف تنسب إليها الولادة مقروناً ذلك بحديثه تعالى عن تفرده بأنه المخرج ، إن ذلك مما يأباه ذوق المتأمل ويدرك أن النسق القرآنى جمع إلى رعاية المقام رعاية السياق . وتأمل معى أيضاً آية النساء ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم ﴾ وقال فيها : ﴿ وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم ﴾ ، وقال : ﴿ وأمهات نسائكم ﴾ . وقال فى آية الأحزاب : ﴿ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم ﴾ ، فتجده تعالى يذكر الأمهات لأن التحريم مرجعه النسبة لا الولادة ، ومن هنا كان لفظ الأم ، لأنه يدل على أنَّ معنى الأصل الذى يرجع إليه هو المناسب لحديث التحريم .

والميراث أيضاً مما يدعى فيه الأصل والنسب كالتحريم ، ولذلك ذكرت فى آياته الأم دون الوالدة كما ذكر الأب فقال تعالى : ﴿ فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث ﴾ ، وقال ﴿فإن كان له إخوة فلأمه السدس﴾ .

أما إذا كان الحديث عن الرضاع والولد فإن الوالدة أنسب بالذكر من الأم ، يقول تعالى : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن ﴾ ، فذكر الرضاعة يستدعى لفظ الوالدة لأن الرضاعة من الولادة ، وفى هذه الآية: يقول تعالى أيضاً :﴿ لا تضار والدة بولدها ﴾ ، لأنه لما كان فيها ذكر المولود ناسب أن يذكر لفظ الوالدة لا الأم ، ذلك أن الآية تدعو إلى أنه لا يجوز أن يلحقها الضرر بسبب الولد ومن هنا عبر بالوالدة ، ولما كان لفظ الوالدة يدل على الولادة كان أنسب بحديث البر والصلة ، كما ذكرنا فى لفظ الوالد ، لأن لفظ الوالدة أرق من كلمة الأم ، ومأخذ الرقة فيها دلالتها على الولادة ، وهى مدعاة إلى الرحمة ، ولذلك قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام : ﴿ و جعلنى مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبراً بوالدتي ﴾ . وإن نسق هذه الآية كنسق الآية الأخرى التى يقول فيها عن يحيى عليه السلام :﴿ وكان تقياً . وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصيا ﴾ فذكر الوالدين هنا كذكر الوالدة فى قصة عيسى عليه السلام ، وهو أنسب بالبر وادعى له .

ومثل ذلك أيضاً حديث النعمة وشكرها يقول تعالى: ﴿يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس ﴾ وقال أيضاً ﴿ فتبسم ضاحكاً من قولها وقال ربى أوزعني أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدي ﴾ . فتراه سبحانه حيث ذكر النعمة يذكر الوالدة والوالدين تنبيهاً على نعمةٍ جليلة وهى نعمة التربية والرعاية فى المهد ، ولهذا قال تعالى فى آية الإسراء بعد أن ذكر الوصية بالوالدين : ﴿ وقل ربى أرحمها كما ربياني صغيرا ﴾ ذلك أن لفظ الوالدة والوالد أرق - كما بينا - ولما كان الحديث حديث رحمة ووصية استقرا فى مكانها وأحكم النسج بهما .

وبعد فقد قال تعالى : ﴿ أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يؤتى آبائهم الأولين ﴾ ، وقال عز من قائل: ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾ هذا وإن جوانب التدبر فى الكتاب العزيز لا يحصيها العدّ وما قدمناه نماذج نحاول بها التعرف على نسق القرآن الكريم ، وأحسبنى قد تطاولت إلى غاية سامقة ، وإنى لأسأله تعالى التوفيق والسداد ، وممن قرأ هذا حسن التوجيه ، والله - تعالى - أعلم .